

حوار من وحي الصحراء

لماذا أنت جافة وقاحلة، ألا
تملين رتابتك؟!...

لماذا أنت غامضة، ومتقلّبة،
تخيفين بمجهولك الكثيرين؟!...
لم أنت مستوحدة؟ ما الذي أنت
عليه؟!...

ولم أنت صامتة لا تجيبين؟!...
أجابت الصحراء: سمائي ليست
مثل كل سماء،

إنها عشق التوهج، وأرضي
احتواء،

منه أعطيت الطاقة، والطاقة
ليست صمتاً ولا جفافاً

حادثتها: لست أدري إذا ما كنت
سلاماً وأماناً، أم وحشةً وعزلةً
وخواء،

ولا إذا ما كنت صفاءً وعذوبةً، أم
تمرداً واحتقاناً وجفاءً...

لكنك فعلاً طاقة، وامتدادٌ
مجهولٌ يثير في النفس الحيرة
والتساؤل...

أجابت الصحراء:

لا تنظري إليّ من «جفافي»
بل انظري إليّ من أعماقك...
واسأليني،

تمعني، تعمّقي، وتأملّي،
أطلقني الرؤيا لتجدي فيّ ما
تطمحين إليه...

سألتها:

ولماذا لا تخبريني من أنت وما
أنت؟!...

لماذا لا تعطينني لمحة عن
حقيقتك؟

ولماذا لا تكشفين عن سرّك؟!
افصحي عن حالك!...

ردّت الصحراء باقتضاب:

في العمق تسكن الحقائق!
ابحثي في الأعماق...
وانطوت في صمتها...

قلت لها:

لا تقبعي في صمتك من جديد...
فصمتك يوقظ فيّ شعور

العزلة والألم ويقصيني عن
البحث الأكيد...

هل فعلاً لم أبحث في داخلك؟
وهل فعلاً لم أفهمك؟!...

دعيني إذاً أغور في جوهرك...
واستطرد فكري بعد تأمل

وتمعن طويل:

أيتها الصحراء، أنت فعلاً نبض
طاقة أعطى للبشرية الكثير...

وأنت وهجٌ في جوهرك تحدّ، كأن
من يستمدّ منك يعبر مسار
التحدي العنيد،

أنت أيضاً ظاهر وباطن، سبب
ونتيجة...

لعل صمتك سلام، أو سكون
يطوي شواهد الأعمار...

لربما أنت نصف البحر الذي إن
التقيته تكتملين

هو سحر غامض وأنت طاقة
مستعصية،

كلاكما غموضٌ وسحرٌ وتحدي
وتواضعٌ وامتدادٌ وأسرارٌ، تطوي
الكثير الكثير...

لا، لا، أنت لست جفافاً،

بل تاريخٌ من نبض، يتحوّل
مع العصور إلى قطراتٍ من
محيط...

ومحيطٌ من عطاء يتخفى في
الصمت، ويرسم في امتداد

الزمان دوائر
هي عبّر لكل الأجيال...

ما الذي لا يبدو صحراء لنا إن
شئنا؟..

وما الذي لا يبدو شلالاً متدفقاً
إن شئنا؟

وعينا، تفتحنا، وإرادتنا هي التي
تحدث الفرق،

فتجعل الصحراء «مواكب»،
والأرض «فضاء»...

وتجعل كل ما في الكون
يحدثنا...

وحين نختار ما نود أن نسمعه
من الحياة...

إنما نختار بقدر ما نحبّها
ونقدّرها ونحياها...

فالحياة عزف غير منفرد... أنغامه
تملأ الأكوام

وأوتاره سماوية اسمها
الإنسان...

وأنت أيتها الصحراء شاهد على
قدر الإنسان

إلى أن يغدو إنساناً بلا أن!!!